تحول النمو التدريجي

الى انقلاب في الثورة الفرنسية

كل نهضة إجتماعية لا بدّ لها من النموّ التدريجي . ولكن عند حد معين تكثر المؤثرات فتصير إنقلاباً قد يكثر فيه الغلط في الأقوال والأعمال وقد كانت الثورة الفرنسية مثالاً لهذا الانقلاب بعد النموّ التدريجي .

وعند ما بدأ المؤرخون كتابة تاريخها بطريقة علمية كانت الفكرة المسيطرة على أذهانهم أنها أنقلاب لا صلة له بالماضي وإنه لا يصح أن يجمع المؤرخ بين نظرية النموّ التدريجي ونظرية الإنقلاب والثورة الفكرية . وكان أشهر من نظر إليها من حيث أنها انقلاب، الكاتب الفرنسي تين . ولبثت هذه النظرة سائدة إلى أن أظهر مؤرخان صلاتها بالماضي فأظهر موريل صلاتها به في شؤون السياسة الخارجية وأساليبها وأغراضها كما أظهر دي توكفيل صلاتها به في الأمور الداخلية .

عند ما أيقظ أحد الضباط النبلاء الملك لويس السادس عشر من نومه وأبلغه خبر اعتداء الباريسيين على سجن الباستيل واستيلائهم عليه، قال الملك: هذا عصيان. فقال النبيل: لا يا مولاي انها ثورة . وكما أن ذلك النبيل صحح رأي لويس السادس عشر، جاء تين المؤرخ وصحح رأي النبيل . فقال لم تكن ثورة فحسب، بل كانت فوضى واضمحلالاً . ثم أخذ يقيم الأدلة على صحة رأيه . والحقيقة أنها كانت فوضى واضمحلالاً في أول أمرها قبل أن تنظم بعد تجربة إثر تجربة

ولكن موريل ودي توكفيل قد أثبتا أنها بالرغم من ذلك كانت مرحلة عنيفة من مراحل التغير التي شهده الماضي وأوضحا صلاتها بها . ولم تكن آراء دي توكفيل آراء نظرية، بل إنه طاف بمدن فرنسا ودرس السجلات المحفوظة من العهود السابقة وجعل يبحث وينقب حتى كوّن آراءه لم يكن يتوقع تكوينها. فقال : كلما تقدمت في البحث ازداد تعجبي، لأني في كل حين كنت أجد نظماً وخططاً وصفات أراها في فرنسا الحديثة ، وكنت أظنها نتيجة الثورة الفرنسية فإذا هي من عهدٍ أقدم، وقد وجدت أن العوامل التي انتصرت في الثورة الفرنسية هي العوامل التي كانت تعمل قبلها مثل توحيد المقاطعات والقوانين وتنظيمها وإزالة الفروق . حيث وجد غيره من المؤرخين انفصالاً عن الماضي ، وجد دي توكفيل استمراراً معقولاً.

فوجد ان الثورة زادت السلطة المركزية انتظاماً كما زادها دولة البوربون قبلها ولو ان الثورة أضعفتها أولاً في عهد التجربة والارتجال المؤقتة . ووجد ان الثورة الفرنسية قضت على البقية الباقية من آثار النظام الاقطاعي الذي ظلّ ملوك فرنسا يحاربونه دهوراً طويلة وبالرغم من الامور التي تدل على غير ذلك فإن الملوك كانوا يحاولون تحقيق المساواة أمام قانون الملك . وإنما سقطت الملكية لانها تخلت عن خطتها القديمة ولم تتبعها . ثم داد دي توكفيل يقول ان الثورة الفرنسية هي نهاية عنيفة لعمل استمرّ أجيالاً كثيرة ودهوراً طويلة . وبالرغم من نقد النقاد له في الامور الثانوية فقد صارت فكرته هذه أساساً ثابتاً لبحوث من يوثق بهم من المؤرخين حتى قال شيرير الناقد الشهير : إن ما فعله دي توكفيل لعلة الثورة الفرنسية بما قبلها قد فعل مثله علماء الجيولوجية عند ما وضعوا نظرية التغير التدريجي البطيء بدلاً من نظرية الانقلاب المفاجيء السريع في علم طبقات الارض .

فكأنّ الثورة الفرنسية هي نتمة لأعمال الملوك مثل لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر ولاعمال وزرائهم مثل ريشليو فقد كانت خطة ريشليو هي توحيد فرنسا ومحاولة ازالة الفروق المحلية واخضاع النبلاء . وقلّ من يخرج منهم على القانون ، ومحو نفوذهم السياسي ، وقد نجح في ذلك حتى ان كثيراً منهم فضل أن يعيش في فرساي في حشم الملك وبطانته . ويزوال عملهم السياسي لم يبق ما يسوّغ ميزاتهم الخاصة كالاعفاء من الضرائب وغيرها . فلما جاءت الثورة الفرنسية قضت على تلك الميزات وكانت فرنسا الى عهد الثورة الفرنسية لم يتم توحيد نظمها وقوانينها . ففي كل مقاطعة قوانين ونظم . وكان هذا الاختلاف من بقايا عصر الاقطاع فما لم يزله الملوك من فروق ، أزالته الثورة . وكان الملوك قد عطلوا اجتماع مجلس طبقات الشعب دهراً طويلاً كي لا يتقيدوا به . فلما ساءت مالية الدولة بسبب تبذير الحكومة الملكية ورفض الاشراف والكنيسة دفع الضرائب اضطرت الحكومة خشية الافلاس الى عقد مجلس الطبقات ، فكان فاتحة الثورة إذ تحوّل الى مجلس نواب موحد وهو الجمعية الاهلية بالرغم من معارضة الملك والاشراف والاساقفة ، وتعطيل الملوك مجلس الطبقات دهراً طويلاً وخلو فرنسا من مجلس نيابي له خبرة ، من أسباب تحول هذا النمو التدريجي البطيء الى ثورة عنيفة إذ أخذ الساسة بالنظريات العامة التي ظنّ انها تصلح لكل زمان ومكان .

وإذا نظرنا إلى الامور الاقتصادية وجدنا أن هذا التغير التدريجي ملحوظ فيها أيضاً . فقد أثبت الباحثون أن عدد ملاك الاراضي الزراعية من غير النبلاء زاد قبل الثورة الفرنسية بالرغم من قيود وضرائب . ولم تكن ثورة الفلاحين أول ثورة من نوعها . فقد شهدت فرنسا ثورات أخرى كبيرة في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر ولكن فلات أعباء الفلاح ثقيلة

إذ أنه كان يؤدي للنبلاء الفروض الاقطاعية وللكنيسة ما فرضته ويقوم بأعباء ضرائب الحكومة. ولكن حرص الفلاح الفرنسي مكنه بالرغم من ذلك في الأقاليم التي كان أحسن فيها حالاً من شراء بعض أراضي النبلاء والفقراء كما تمكن غيرهم من البورجوازية فازدادت طبقة الفلاحين في العصور التي سبقت الثورة الا في سني الشدة بين سنة ١٦٨٠ و ١٧٥٠ . ثم جاءت الثورة الفرنسية فضاعفت طبقة الفلاحين بسبب بيع أراضي الكنيسة وأراضي النبلاء المهاجرين. فهذا أيضاً نمو تدريجي غايته انقلاب. واذا نظرنا الى الآراء السياسية والاجتماعية الحديثة وجدنا انها بدأت قبل الثورة وكان بعضها مستفاداً من لوك الفيلسوف الانجليزي ومن مبادئ اعلان استقلال الولايات المتحدة وبعضها من دراسة تاريخ الاغريق والرومان. ولقد كان لهذه الآراء الحرة أثر في الثورة الفرنسية بالرغم من أن أكثر الشعب كان غير مثقف لأنها هيأت للثورة قادة وخطباء وكتاباً ومحققين ومنظمين ، ولأنها أثرت في طبقة الأشراف، فأمقتت سلاحهم، أو جعلته واهياً. وكانت هذه الآراء بين كثير من الأشراف قبل الثورة زيًّا جديداً يفرحون ويتجملون أو يلهون به متخذين منه مظهراً. ويكفي أن نذكر كيف أن الملكة وبعض النبلاء والأمراء تمايلوا حتى مُثِّلَتْ قصة (فيجارو) التمثيلية التي يسخر فيها مؤلفها بومارهيه من النبلاء ويشهّر بهم . وقد مثلت بالرغم من ارادة الملك ووزرائه فكان هؤلاء النبلاء كالفراش الذي يتساقط على النار . هذه الآراء الحرة لم تكن مباغتة بل كانت نموًّا تدريجيًّا انقلب ثورة .

ونشأت طبقة (البورجوازية) قبل الثورة نموًّا تدريجيًّا وهم الطبقة الوسطى من رجال التجارة والصناعة والمال . والكلمة مشتقة من كلمة بورج أي مدينة . وكان رجال المال والتجارة يتحصنون في المدن في عهد الإقطاع ويتخذون جنوداً من أهل المدينة أو من المرتزقة ويمنعون النبلاء من السطو . وكان الملوك وهم يحاربون أمراء الاقطاع يمنحون أهل المدن ميزات ويستعينون بهم لإضعاف نفوذ الأشراف ، فكان أصدقاء لويس الحادي عشر وأعوانه عليهم . ولكن لما صار النبلاء حاشية للملك في فرساي ، صاروا سدًّا يمنع تعاظم نفوذ البورجوازية . وبدأت هذه الطبقة تشعر بما ينقصها من منزلة إجتماعية حرمها منها النبلاء وكان بين أبناء البورجوازية كثير من المثقفين الذين قادوا الثورة ونظموها وبالرغم من ظهور المبادئ الاشتراكية فيها فقد تمكنت طبقة البورجوازية في النهاية من تحويل النفوذ السياسي والاجتماعي إليها بعد أن كان النفوذ الاجتماعي للنبلاء. فمن أية ناحية نظرنا إلى الثورة الفرنسية وجدنا أنها كما قال دي توكفيل كانت نهاية عنيفة لعمل استمرَّ دهوراً طوالاً وهي تثبت أن النموَّ التدريجي البطيء لا يمنع من التحويل إلى انقلاب كبير.

ع . ض